-١-

بزوغ النبوة وتبليغ الرسالة

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت شبه الجزيرة العربية قبيل الإسلام بلاداً تكاد تخلو من الحضارة.. وربما لأن معظمها صحراء جرداء فقد أدى ذلك إلى عدم طمع القوى الكبرى فيها من أمثال دولة الفرس أو الرومان، فلم يجدوا فيها إلا مجرد جبال وصخور وصحراء بلا ثروات تغرى بالاستيلاء عليها أو التحرش بالقاطنين فيها، باستثناء الجزء الجنوبى (اليمن)..

حيث كان يسقط عليه الأمطار بانتظام وبالتالى أقيمت على أرضه حضارة وعمران، مما أغرى بالأحباش أن يحتلوها، ثم احتلها أيضًا من بعدهم الفرس.

وكانت مكة لهـا مكانة خاصة لأن بها بـيت الله الحرام، الذى أقام قواعده إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، ومن هنا فقد كان مقدسًا عند العرب الذين يحجون إليه، ويذكرهم بإبراهيم وإسماعـيل، كما أن مكـة أصبحت مكانًـا للتجارة يرد إلـيها تجارة اليمن وتجارة الشام، كما أن أهلها أيضا أصبحوا يقومون برحلتى الشـتاء والصيف، رحلة الـشتاء للتجـارة إلى اليمن، ورحلة الصيف للتجارة إلى الشام..

وهذه التجارة.. بجانب الموقع الممتـاز لمكة جعل لها قيمة خاصة عند العـرب، وجعلها قريبة من الحضـارة لتوافد الناس عليها إما للحج أو للتجارة.

وفى مكـة ولد الرسـول ﷺ، بعد زواج أمـه آمنة بـنت وهب بوالده عبـد الله بن عبد المطلب، الذى لم يمكـث معها أكثر من عشرين يومًا، وخرج بعـدها للتجارة إلى الشام، غير أنه مرض وهو فى طريق العـودة، ودفن فى يثرب عند أخوال جده من بنى النجار.

وكـان تاريخ أجـداد محـمد بن عـبد الـله تاريخ مـلىء بالأمجـاد، فجده الرابع (قـصى) هو الذى أخرج خـزاعة من مكة، وقام هـو بدلا منها برعايـة بيت الله الحرام، كـما أقام (دار الندوة) ليجتمع فيها زعماء مكة للتشاور فيما يخصهم من

أمور، فقد كان يعيش فى مكة اثنا عشر بطنًا، من هذه البطون (بنو عبد مناف) جد النبى ﷺ، و(بنو تيم) أجداد أبى بكر، وغيرهما من البطون التى ينسب إليها أعلام صحابة الرسول ﷺ فيما بعد.

والتاريخ يحكى لنا كيف ولد الرسول ﷺ يتيمًا، فقد مات والده وهو لا يزال فى بطن أمه، فكفله جده عبد المطلب، الذى أرسله إلى البادية، حيث أرضعته حليمة السعدية، فى بادية بنى سعد، مدة عامين، ثم أعادته إلى أمه، ولكنها كانت قد اعتادت على هذا الطفل الجميل، التى تبدو عليه مخايل الوسامة والذكاء، وأخذته مرة أخرى لمدة ثلاث سنوات، وفى تلك السنوات التى عاشها محمد فى البادية، بدا عليه الصحة الوافرة، والذكاء المتقد، كما كان قدومه على حليمة قدوم سعد، فقد بارك الله فى رزقها، وأكثر عليها النعم، فتعلقت بهذا الطفل الصغير تعلق الأم بوليدها.

ولكنها لاحظت على الطفل كثرة التأمل.. وكثرة النظر إلى السماء.

وعاد الصغير إلى أمه، والتى حملته معها إلى يثرب لزيارة قبر والده الحبيب ومعها خادمتها بركة،.. كان محمد

ابن عبد الله فى عامه السادس عندما ذهب مع والدته لزيارة قبر والده الحبيب الذى لم يره قط، وليزور أخوال جده عبد المطلب من بنى النجار.

كانت الرحلة بين مكة ويثرب رحلة شاقة فى قيظ الصيف، وحر الصحراء.. ولكن الأم المحبة لزوجها تحملت هذا السفر الشاق، وفى طريق العودة، لم تتحمل آمنة مشاق هذا السفر الطويل، ومرضت، وفارقت الحياة، وهى تحتضن وليدها - عند الأبواء - ورأى الطفل الصغير أمه وهى تفارق الحياة.. كما شاهدها وهى تدفن فى قبر فى الصحراء.. لقد بكى طويلا وظل هذا الحادث فى ذاكرته طوال حياته.. حتى إنه روى عنه قوله:

- لقد ولدت والحزن رفيقى.

بل إنه وقف عند قبر أمه.. وقد اقتربت حياته هو الآخر على الانتهاء... يوم ذهب لحجة الوداع.. وعند الأبواء.. زار قبر أمه.. وبكى.. وهو يتذكر الحنان الخالد الذى شاهده فى طفولته وهو يوارَى التراب.

وقد عبرت السيدة عائشة أم المؤمنين وكانت فى صحبة زوجها الكريم فقالت:

«حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع، فمر بنا على قبر أمه وهو باك حزين مغتم، فبكيت لبكائه ﷺ».

وعاد اليتيم إلى مكة حيث احتضنه جده عبد المطلب، والذى كان يجلسه إلى جانبه فى مجلسه الخاص عند الكعبة.. حتى إن الناس كانت تناديه بابن عبد المطلب، ولاعتزاز النبى ﷺ بجده الذى رعاه بحبه ورعايته أيام طفولته اليتيمة، قال فى موقف من المواقف الخالدة فى الإسلام، فى أحد معاركه الكبرى.. يوم ذهب لغزوة (حنين).. لقد قال الرسول ﷺ وسط جنوده المقاتلين:

«أنا النبى لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب».

[البخارى ومسلم]

وعندما مات عبد المطلب رعاه عمه أبو طالب، وحنا عليه نفس الحنو الذى كان يحنو به عبد المطلب.

وشب الصغير وهو فى رعاية عمه، ولم تعرف عنه مكة اللهو كما يلهو الشباب، ولا عرفت عنه عبث الشباب، ولكن عرفت فيه الرجل الصادق الأمين.. عفيف اللسان.. شجاع العقل والقلب.. يفيض رقة وحنانًا على الضعفاء والمساكين.. مكتمل العقل.. قوى الحجة، فصيح اللسان.

وقد صحبه وكان من المقربين إليه أبو بكر بن أبى قحافة.. وكان شابًا رقيق القلب.. أبيض اللون.. نحيفًا.. بارز الصوت.. يحبه الناس ويثقون به لفصاحته، ولأنه كان تاجرًا ناجحًا.. يقوم بتجارة قريش إلى الشام وإلى اليمن. وكان بجانب شخصيته الجذابة حافظًا لأنساب العرب وأشعارهم وحكمهم.

لقد ارتبط أبو بكر بمحمد.. وأحب كل منهما الآخر.. ومرت الأيام.

وبينما كان محمد يتعبد كعادته فى غار حراء نزل عليه الوحى، وكانت أول آيات القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

[العلق: ١ - ٥]

وبنزول هذه الآيات.. بدأت مسئولية الرسول الجسيمة فى تبليغ رسالة السماء إلى البشر.

لم يكن الأمر سهلا ولا هينا.

فمكة التى عاشت على عبادة الأسلاف.. هؤلاء الذين كانوا يعبدون الأصنام حول الكعبة.. كان من الصعب أن تستجيب لدعوة من يطلب منهم نبذ هذه الأصنام التى لا تنفع ولا تضر.

لقد شعر الرسول بعظم المسئولية.. مسئولية رسالة الله إلى خلقه.

وكان رد الفعل لما رآه الرسول ﷺ فى (غار حراء).. عندما نزل عليه جبريل عليه السلام، وضمه إلى صدره ثلاثًا، ثم نزول أول آيات القرآن الكريم.. أن عاد النبى إلى بيته مرتجفًا وهو يردد:

دثرونى دثرونى.

وقال لزوجته خديجة بنت خويلد:

لقد رأيت يا خديجة ما أفزعنى، وما جعلنى أهيم فى الصحراء خوفًا على نفسى من أن أكون شاعرًا أو كاهنًا أو مجنونًا.

ولا أكره شيئًا أكثر من أن أكون أحد الثلاثة.

وقص عليها كيف التقى بجبريل، وكيف أخبره بأنه سيكون نبى هذه الأمة.. وأنه قال له:

- أبشر يا محمد. أنا جبريل.. وأنت رسول الله إلى هذه الأمة.

وأخبرها كيف ضمه إليه ثلاثا وهو يطلب منه أن يقرأ والرسول يقول له: ما أنا بقارئ إلى أن تلا عليه الآيات

الكريمات.. فلما قرأها.. ارتفع جبريل عن الأرض حتى اختفى عن نظر الرسول.

قالت له خديجة: أبشر يا ابن عم.. واثبت.. فوالله إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.

وخرجت خديجة إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل) لتحكى له ما حكاه زوجها عما رآه فى غار حراء.

فقال لها ورقة بن نوفل:

لئن كنت صدقتنى يا خديجة، لقد جاءه الملك الأكبر الذى كان يأتى موسى، فقولى له فليثبت ولا يخشى شيئًا وعادت خديجة لتجد الرسول، قد نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر ١: ٧].

ونظرت إليه زوجته الطاهرة خديجة وهو يردد ما أوحى له به ربه، فقال لها خاتم الأنبياء والمرسلين:

لقد انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرنى ربى أن أنذر الناس، وأن أدعوهم إلى عبادة إله واحد، فمن ذا أدعو، ومن ذا يجيب؟

و.. كانت خديجة أول من آمنت به من النساء.

وكان من الطبيعى أن يدعو صديقه أبا بكر للإيمان بهذا الدين الجديد.. ويقص عليه ما رآه فى غار حراء من أمر الملاك جبريل عليه السلام.

وكان أبو بكر يعرف ما هو محمد فى صدقه وعفة لسانه، واستحالة أن يكذب على الله، فما كان منه أن أعلن إسلامه على الفور.. حتى إن الرسول ﷺ قال عنه:

«ما دعوت أحدًا للإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر».

ويقصد بالكبوة التردد.

وبإسلام أبى بكر أسلم عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير ابن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح..

كما أسلم من الصبيان على بن أبى طالب الذى تربى فى بيت رسول الله.

وبدأت الدعوة فى أول أمرها سرية إلى أن أمر الله رسوله بأن يجهر بهذه الدعوة عندما نزل قوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**

﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ .

[الشعراء: ٢١٤ -٢١٦]

* * *

وجهر الرسول ﷺ بالدعوة.

وثارت مكة ثورة عارمة.

ورأت فيما يدعو إليه الرسول تعريضًا بآلهتهم، واحتقارًا لشأنهم.. وأن هذه الدعوة ستجرئ الضعفاء على السادة.. وجن جنون مكة.

أخذت فى تعذيب المستضعفين من المسلمين، وكان من ضحايا هذا التعذيب ياسر وسمية وابنهما عمار.

وشاهد الرسول ﷺ ما يفعله أبو جهل بآل ياسر وقال لهم:

«صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة».

وقال له ياسر:

- الدهر هكذا يا رسول الله.

وقالت زوجته سمية للرسول:

- أشهد أنك رسول الله، وأن وعدك الحق.

obeikandl.com

وقال عمار بن ياسر لمن يعذبه:

- هذه أجسامنا بين أيديكم يا أعداء الله، فاصنعوا بها ما شئتم.. فالموعد الآخرة، والله يحكم بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين.

وكانت سُمية أول شهيدة فى الإسلام، وتبعها زوجها ياسر وكان الشهيد الثانى فى الإسلام بعد زوجته سمية.

وزاد الضغط والعذاب على عمار، والكفار يطلبون منه أن يذكر آلهتهم بخير، حتى اضطر تحت وطأة العذاب أن يذكر آلهتهم بخير.. وتركوه، وذهب دامع العينين إلى الرسول يخبره بما حدث، فقال له الرسول ﷺ:

- يرحمك الله يا ابن سمية. أخذك الكفار فغطوك فى الماء حتى قلت ما قلت. فإن عادوا فعد.

ثم قال له الرسول ﷺ:

- فكيف تجد قلبك؟

قال عمار:

- أجده مطمئنًا بالإيمان.

ونزل قوله تعالى فى أمر عمار: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ

obeikandl.com

﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

ولم ينج عمار من العذاب إلا بالهجرة إلى الحبشة، ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة.

وظلت مكة على عدائها للدين الجديد.

وبلغ من تعنتها مع الرسول أن طلبت من الرسول المستحيل أو بصورة أدق ما صوره القرآن الكريم:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء ٩٠: ٩٣].

ووسط هذا الجو الذى عاشه الرسول وأصحابه، ووسط هذه الظروف التى عاشها كفار مكة وموقفهم المتعنت والمتسلط من الدعوة.. أسلم بعض كبار رجالات مكة كحمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب.. واقترح عمر على الرسول أن يخرج المسلمون إلى الكعبة جهرة، حتى تعرف قريش قوة

المسلمين، وخرج المسلمون بالفعل وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب، وكان عددهم أربعين رجلا، ولم تجد مكة أمام موقف الرسول إلا مزيدًا من الإيذاء للمسلمين، وزاد من طغيان مكة أن فرضت حصارًا ظالمًا على بنى هاشم والمسلمين فى شعب مكة، بعد أن حررت وثيقة ظالمة.. تعاهدت فيها على مقاطعة بنى هاشم، وعدم الزواج منهم، وعدم البيع أو الشراء منهم، حتى أيقنت مكة أنها بهذا العهد أو تلك الوثيقة كانت ظالمة أشد ما يكون الظلم لبنى هاشم.. حصار ظالم استمر قرابة ثلاث سنوات.. إلى أن أيقنت أن صنيعها هذا لا يليق بها.. وأنه خزى وعار لهم فنقضت هذه الصحيفة..

وأمام تعنت مكة.. هاجر من المسلمين من هاجر إلى الحبشة وأخذ الرسول ﷺ بما أوتى من عزم وقوة يبلغ رسالة الله إلى الناس، دون ضعف أو تخاذل رغم كل جبروت المشركين، ورغم إيذائه وإيذاء أصحابه.

وفقد النبى زوجته خديجة، وبعدها عمه أبو طالب.. وحزن حزنًا شديدًا لفراقهما.. فطالما وقفا بجانبه يذودان عنه أذى المشركين.

. . واتجه إلى الطائف لعله يجد هناك من يتبع دينه فتقوى شوكة المسلمين، ولكنه لم يجد من زعمائها إلا الصلف والتعنت وإغراء الأطفال والسفهاء به، حتى دميت قدماه ﷺ وهم يلقون عليه الحجارة والطوب، حتى إنه التجأ إلى سور بستان، وتوجه إلى ربه بكل كيانه داعيًا:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى، إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك.. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وفى طريق العودة آمن به طائفة من الجن، عند خروجه من الطائف، أو كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ .

[الأحقاف: ٢٩ - ٣٢]

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الجن: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ .

[الجن: ١ - ٦]

عاد الرسول وكان معه زيد بن حارثة، وأجاره المطعم بن عدى الذى خرج معه وأولاده، متقلدو السيوف، حيث دخل معه المسجد ولم يتعرض له أحد.

* * *

وإذا كان الناس فى الطائف كما فى مكة قد خذلوا الرسول، فإن الرسول كانت له مكانته الكبرى عند ربه، فقد أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماوات العلى، حيث رأى ما رأى من آيات ربه

الكبرى.. وعاد من رحلته لا يأبه وهو يعلن ذلك على الناس أيصدقونه أو يكذبونه.. وارتد بعض المسلمين عن الإسلام عندما سمعوا نبأ الإسراء والمعراج.

لكن أبا بكر، عندما جاء من يخبره بما يقوله محمد ﷺ عن الإسراء والمعراج كان رده:

- إن كان قد قال ذلك فقد صدق، وأصدقه فى أبعد من ذلك، ومن هنا لُقِّب بالصديق.

* * *

ودعا الرسول الناس إلى الإسلام فى أسواق مكة من مختلف القبائل التى تأتى إلى مكة، ثم كانت بيعة العقبة الأولى، وإرسال الرسول مصعب بن عمير، ليكون أول سفير فى الإسلام للنبى إلى يثرب، وأسلم على يديه عدد كبير من أهل يثرب.. ورأى الرسول فى منامه دار الهجرة، فقال لأصحابه:

«أُريت دار هجرتكم، أُريت سَبِخَةً ذات نخيل بين لابتين، ولو كانت السَّراة أرضًا ذات نخل وسِيَاجٍ لقلت هى هى».

وكانت بيعة العقبة الكبرى حيث بايع النبى ﷺ ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين على الإسلام.

وأيقن الرسول تحقيق مـا رآه فى المنام من بشرى وهو يرى الإسلام وقـد انتشر فـى يثرب، فقـد عاش الرسـول فى مكة يدعو الناس إلى الـدين ما يقرب من ثلاثة عشـر عامًا منذ أن هبـط عليـه وحى السـماء، ولم يـسلم إلا بضـع مئـات من الناس. لقد بايعـه أهـل يثـرب على السمـع والطاعـة.. فقد قال لهم الرسول:

«تبايعوننى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل (يقصد الحـرب والسلم)، والنفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمـر بالمعـروف والنهـى عـن المنكـر.. وأن تقولـوا فى اللـه لا تخافوا فيه لومة لائم. وعلى أن تنصرونى، فتمنعونى إذا منعت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة إن وفيتم».

فأخذ البَرَاء بيده ثم قال:

- نعم، والذى بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أعراضنا وأحسابنا.. فـبايعنا يا رسول الله، فنحـن والله أبناء الحرب، ورفقاء السلاح، ورثناها كابرًا عن كابر».

و.. كان الأمر الإلهى بالـهجرة إلى يثرب، ليتغـير مسار التاريخ الإسـلامى كله، وتأخذ الـدعوة إلى الإسلام طريقـها

بسهولة أكبر مما كانت عليه فى مكة، بل ويدخل المسلمون معارك ضارية ضد معاقل الشرك.. ويواجهون قوى الأعداء بالسلاح.. لا استكانة ولا خوف.. ولكن حركة وإقدام، ومبايعة على الموت فى سبيل الله.

وهاجر الرسول.. وكان بصحبته الصديق من مكة إلى المدينة.. بعد فشل مؤامرة المشركين بقتل الرسول، وبعد أن ترك فى فراشه على بن أبى طالب حتى يرد للناس ودائعهم..

وعندما خرج الرسول إلى دار هجرته، اتجه ببصره إلى مكة.. البلد التى عاش فيها طفولته وشبابه، والذى جاءه فيها وحى الله.. وفيها بيت الله الحرام، وقال كلمته الآسرة:

«والله إنى لأخرج منك، وإنى أعلم أنك أحب أرض الله إلى الله، وأكرمها على الله، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت».

* * *

وسط هذه الأحداث الهائلة.

والرسول الكريم يبلغ رسالة الله إلى الناس.. فآمن منهم من آمن.. وأصر على الشرك من أصر.. ولدت عائشة بنت أبى بكر.

ولدت السيدة عائشة والدعوة إلى الإسلام على أشدها ووالدها أبو بكر الصديق أقرب الناس إلى قلب صاحب الدعوة ﷺ، وأشد الناس إيمانًا بها، وتحملا فى سبيلها ما فوق الطاقة البشرية.. فاشترى بلالا رضي الله عنه عندما عرض للعذاب من سيده أمية بن خلف.. وصبر على هذا العذاب، وكلما كانوا يطرحونه على الرمال الساخنة، ويضعون على صدره حجرًا زيادة فى العذاب، لا ينطق إلا بقوله:

- أحد.. أحد.

واشتراه أبو بكر بخمس أوقيات من الذهب وأعتقه... وعندما تم الشراء قال أمية لأبى بكر:

- لو أبيت إلا أوقية واحدة لأخذته.

فقال له أبو بكر:

- لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته!

وهذا ما جعل الفاروق عمر بن الخطاب يقول فيما بعد:

- أبو بكر سيدنا.. وأعتق سيدنا!

وقد اشترى الصديق عبدين وخمسة إماء.. اشتراهم وأعتقهم حتى إن والد الصديق قال له:

- أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك فعلت ما فعلت وأعتقت رجالا جُلدًا، يمنعونك ويقومون دونك.

فقال له أبو بكر:

- يا أبت إنى أريد ما عند الله.

* * *

جو عبق بأجواء الروح.. ولذة الجهاد فى سبيل الله، وسعادة الإيمان، وجلال اليقين.. وبيئة تهب منها روائح الإسلام وعبقه وأنواره.. ووسط هذا ولدت عائشة بنت الصديق من زوجته (أم رومان).

والأم (أم رومان) كان اسمها زينب أو دعد - مختلف فيه، كما يقول الأستاذ العقاد - واتفقوا على أنها من كنانة..

وكانت قبل بناء الصديق بها - كما يقول العقاد أيضًا - زوجًا لصاحبه فى الجاهلية عبد الله بن الحارث بن سخبرة، وولدت له ابنه الطفيل، ثم مات فخلفه عليها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه وحليفه.

ومن المتفق عليه أنها كانت امرأة ذكية، أسلمت وهاجرت ولقيت عنتًا شديدًا فى سبيل دينها وزوجها، ويروى عن

النبى ﷺ أنه قال:

«من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان».

وقد اختلفوا فى سنة وفاتها، فمن قائل:

- إنها توفيت فى حياة النبى ﷺ.

إلى قائل:

- إنها عاشت إلى أيام عثمان رضي الله عنه.

والأرجح فى رواية البخارى أنها عاشت إلى أيام عثمان.

ولا يعرف على التحقيق فى أى سنة ولدت عائشة رضى الله عنها.. ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت فى السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بنى بها الرسول ﷺ.

ويقول العقاد:

وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء، فكان ﷺ يلقبها بالحميراء.

وكانت أقرب إلى الطول لأنها كانت تعيب القصر كما مر فى كلامها عن السيدة صفية.

وكانت فى صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول، حتى كانوا يحملون هودجها خاليًا يحسبونها فيه.

قالت فى حديث لها مشهور:

«.. وأقبل إلىّ رهط الذين كانوا يرحلون لى - أى يحملون الرحل على البعير - فحملوا هودجى وهم يظنون أنى فيه. وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم. إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستكثر القوم ثقل الهودج حتى رحلوه ورفعوه، إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن».

ثم مالت بعد سنوات إلى شىء من السمنة كما جاء فى كلامها فى حديث آخر:

«... خرجت مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم، فقال ﷺ: تقدموا فتقدموا.

ثم قال:

- تعالى حتى أسابقك. فسابقته فسبقته فسكت.. حتى إذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى قال ﷺ:

تقدموا.. ! فتقدموا.. ثم قال:

- تعالى حتى أسابقك. فسابقته فسبقنى، فجعل ﷺ يضحك ويقول:

- هذه بتلك.

وعلمنا من بعض أحاديثها أنها وعكت مرة فتمزق شعرها، ومن ثم كانت وصيتها على ما يظهر بالشعر حيث تقول:

- إذا كان لأحدكم شعر فليكرمه.

وعلمنا من رواة وقعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت، تخطب العسكر فى هودجها فى ساحة الحرب فيسمع خطابها.

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال.. وكان أبوها رضي الله عنه من أصحاب هذا المزاج ولا مراء.

ويقول العقاد أيضًا:

والظاهر أنها ورثت عنه كثيرًا من خَلقه وخُلقه على السواء.

فقد كان الصديق جميلا حتى جاء فى بعض الروايات أنه لقب بالعتيق لجماله.

وكان نحيلا دقيق التكوين كما هو مشهور.

وكانت فيه حدة طبع مع حدة ذكاء.

وكان كريمًا سريعًا إلى نجدة المعوزين والضعفاء.

وكـان صـادق المقـال لم يؤخـذ عـليـه كذب فى الجاهلية ولا فى الإسلام.

وكان ماضى اللسان قديراً على إفـحام من يجترئ عليه، وتشبهه السـيدة عائشة فى هذه الخلائق شبـهًا كان يوحى إلى النبى ﷺ كلما سمع مَجيب من يساجلها أن يقول:

- إنها ابنة أبى بكر.. إنها ابنة أبى بكر!

* * *

هذه هى عائشة بنت الصـديق.. التى تزوجت الرسول، وكانت أحب أزواجه إلى نفسه..

وهـى التى كـان لـها دورهـا فى حـفـظ أحـاديث الرسول ﷺ، كما كـان لها دوراً سياسيًا خطيراً فـيما بعد فى خلافة على بن أبى طالب حيث واجهته فى معركة الجمل.!